٥ - بدع العبادات

● ذكر أم نسيان :

أخذ يختفى رويداً رويداً ، ما يُعرف بـــ « الرقص الدينى » أو بـــ « حلقات الذكر » .

واختفاء هذا النوع من العبادات المبتدعة ، لا يعود إلى انتشار الفقه الصحيح للدين .

بل يعود إلى التمرد على الأديان جملة ، ما فيها من حق ، وما فيها من باطل دخيل .

وحيث لا يُنشر الإسلام الصحيح ، أو العلم المجرَّد ، تجد العوام وأشباههم يدمنون هذا اللَّون من الحركات الحمقى ، وما يصحبها من صيحات لا تتبين فى بغامها بعض أسماء اللّه - جَلَّ جلاله - وهم يرددونها في تواجد ، لا يُدرى مأتاه ، ولا يُعرف مبتدؤه ولا منتهاه .

وفى زورة قريبة للسودان ، رأيتُ فى أعقاب الجُمعَ جماهير من أتباع الطُرق الصوفية المختلفة ، يعالجون هذه الطقوس الخرافية بإجلال واستغراق ، ورأيتُ الشبان والشيب يقطر العَرَق من جباههم وجسومهم . لطول ما يقفزون ويهتزون ، يَمنة و يَسرة ، و ينعقون بألفاظ يحسبونها ذكراً للّه ، و ما هى إلا النسيان التام، والحجاب الغليظ .

فلما خرجتُ من المسجد - حيث هذه الصور المنكرة - واحتوتنى ميادين العاصمة المثلّثة ، شاهدتُ أبناء الفرنجة مقبلين على الحياة فى عزم وأمل ، يديرون المتاجر السامقة ، وتسيل الثروة والقوة والجمال من بين أيديهم ، ومن خلفهم .

فهززتُ رأسى أسفاً واستحياءً ، وتذكرتُ ما قيل من أنَّ الفقر العربى ، يمشى على أرض من ذهب .

وتساءلتُ : ماذا كان على هؤلاء المصلّين ، بعد ما فرغوا من الجُمعة ، لو خرجوا لينتشروا في الأرض ، ويبتغوا من فضل الله ، كما أمرهم الله ؟

إنَّ الذين ابتدعوا هذه « الأذكار » أضلوا المسلمين ضلالاً مزدوجاً .

أضلوهم إذ أضافوا إلى ما شرع الله هذه الزيادات المتخمة السامة .

وإذ صرفوا الهمم عن أعمال أخرى ، كان الإقبال عليها أرجى في دين الله ، وأدنى إلى نفع الناس .

وقد أنكر الأئمة هذه الصور الزائدة ، وهى فى طورها الأول ، أى يوم كان خيرها أظهر من شرها ، ونفعها أقرب من ضرها .

روى ابن كثير عن إسماعيل بن إسحاق : قال لى أحمد بن حنبل : هل تستطيع أن ترينى الحارث المحاسبى إذا جاء منزلك ؟ فقلت : نعم ، وفرحت بذلك ..

ثم ذهبتُ إلى الحارث فقلت له : إنى أحب أن تحضر الليلة عندى ، أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير ، فأحضر لهم التمر والكسب .

فلما كان بين العشاءين جاءوا. وكان الإمام أحمد قد سبقهم ، فجلس فى غرفة ، بحيث يراهم ويسمع كلامهم ، وهم لا يرونه .

فلما صلّوا العشاء الآخرة ، لم يصلّوا بعدها شيئاً ، بل جاءوا فجلسوا بين يدى الحارث ، سكوتاً مطرقى الرؤوس ، كأنما على رؤوسهم الطير .

حتى إذا كان قريباً من نصف اللّيل ، سأله رجل مسألة ، فشرع الحارث يتكلم عليها ، وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكى ، وهذا يزعق .

قال : فصعدتُ إلى الإمام أحمد فإذا هو يبكى ، حتى كاد يغشى عليه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح .

فلما أرادوا الانصراف ، قلت : كيف رأيتَ هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ قال : ما رأيتُ أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل هؤلاء ، ومع هذا ، فلا أرى لك أن تجتمع بهم .

قال ابن كثير : وإنما كره ذلك ، لأن فى كلامهم من التقشف وشده السلوك ما لم يرد به الشرع ، ومن التدقيق والمحاسبة البليغة ما لم يأت به أمر .

ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازى على كتاب الحارث المسمى بـ « الرعاية » قال : هذا بدعة .

ثم قال للرجل الذى جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثورى والأوزاعى ، والليث ، ودع عنك هذا ، فإنه بدعة .

* * *

ذلك رأى الأئمة فى بعض صور العبادات التى استحدثها المتصوفون يوم كان التصوف معرفة يشوبها الغلو ، لا جهالة تغلبها الخرافة ، كما هى حال أغلب القوم فى هذه الأيام .

والحق إنَّ عوام المسلمين وخاصتهم ، لهم في ذكر الله اساليب تتفاوت بعداً وقُرباً عن المعروف في كتاب الله ، وسُنَّة رسوله .

فالذكر يقابل النسيان ، أى أنه وصف للقلب ، لا وصف للسان .

والمرء قد يتذكر الشىء تذكراً جلياً واضحاً ، يملأ عليه أقطار نفسه ، دون أن تتحرك شفتاه ، أو تختلج في جسمه عضلة ، بل إنَّ سكون بدنه أعون له على الاستذكار .

وكلما هدأ واستغرق ، اكتملت فى ذهنه الصور التى يريد أن يمتثلها .

وحركة اللسان - عندئذ - إنما تأتى نتيجة - غير محتومة - لاستفاضة الوجدان بما فيه .

ورُبَّ ساكت لا تسمع منه حرفاً ، وقلبه عامر بذكر الله .

ورُبَّ متحدث عن الله بلسانه ، وفؤاده عن الله مشغول ، أو معزول ، فهو أشبه بـ « الأشرطة » المسجلة للقرآن الكريم ، ترده كما أنزل ، وليس عليها من حساب فى ثواب أو عقاب .. !!

ولا أنكر أنَّ الإسلام قد شُرِعت فيه أذكار شتَّى ، يقولها المؤمن بلسانه ، ولا يكتفى فيها بجنانه .

ولكن هذا الذكر باللسان لا يتم ويرتفع ، إلا إذا كان اللسان مفتاحاً للقلب ، ومحركاً له من خمود ...

وهناك عبارات خاصة ذكرتها السُنَن الثابتة ، وقرنت بترددها ثواباً جزيلاً ، أو رتبت على تكرارها أجراً رفيعاً .

غير أن هذه الجمل المأثورة ، لا تعدو فى غاياتها الأناشيد الحماسية ، التى تصنعها الأمم فى عصرنا هذا ، كى تمجد الأوطان ، وتحبب إلى النفوس البذل فى سبيلها ...

فجماهير الطلاَّب والعمال - حين يرفعون عقائرهم بهذه الأناشيد ، وحين تبرق أعينهم وتهتز أذرعتهم - يظهرون - بهذه المشاعر الفائرة - لوناً من الحب لبلادهم ، يستحق التقدير .

لكن أحداً من أولئك المنشدين ، لا يفهم أنَّ خدمة بلاده تنتهى بهذا الصياح ، مهما قارنه من إخلاص .

فدراسة العلم والانتظام فى فصوله ، والإدمان على كتبه ، هو واجب التلميذ الأول نحو أمته .

واتقان العمل والاستقرار فى مصانعه ، والعكوف على إجادته ، هو الواجب الأول للعامل نحو أمته .

وتلاوة النشيد القومى ، لا صلة لها ألبتة بهذه الواجبات المحتومة ، بل قد تُرجأ إلى أوقات الراحة ، بعد استفراغ الجهد فى القيام بالحقوق المقررة .

ولو أن تلميذاً اكتفى من حب بلاده بغناء النشيد القومى مثنى وثلاث ، ما اعتبره الناس إلا شخصاً أحمق ...

كذلك شُرِعت - فى دين اللّه - طائفة من الأدعية والأوراد المأثورة ، تضمنت معانى جليلة ، من تسبيح اللّه وتمجيده ، وتقديسه وتحميده . يهتز لها ضمير المسلم ، وينشرح بها صدره .

والحكمة من شرع هذه الأذكار ، ربط القلوب بالله ، على نحو مباشر ، وبطريقة حارة .

وجميل بالمسلم ، أن يواظب على هذه المأثورات ، وأن يدع آثارها الكريمة ، تنطبع فى نفسه .

بَيْدَ أن من الغلط البالغ أن يعدو بها قدرها ، فيحسب أن ترداها يُغنى عن الأعمال التى نيطت بحياته ووزِّعت على أوقاته .

أجل ، قد يُسمح من المسلم أن يذكر الله بلسانه على شريطة ألا ينساه فى أعماله وأحواله .

فالذكر الأصيل المفروض ، أن يعرف المرء ربه وقت النفقة فيكرم ، وحين البأس فيقدم .

فإذا نسيه فى هذه أو تلك ، فهو خاسر ، كما قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

نعم .. هم خاسرون ولو صاحوا بذكر الله حتى شَقُّوا أجواز الفضاء .

ثم إن التذكر - لكى يصحبه فقه وتدبر - لا يكون بألفاظ مفردة يكررها الإنسان مئات وألوفاً .

فإن الذكر كلام ، والكلام لا بد - ليُستفاد منه معنى معقول - أن يتكوَّن من جملة كاملة ..

هبك أردت أن تذكر شخصاً اسمه عمر . فهل يحلو ذكره بأن تقول : عمر .. عمر .. عمر .. إلخ ؟ .

---

(١) المنافقون : ٩

وهل إذا قال اللّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [1] كان تنفيذ هذا الأمر بترديد بعض النِعَم التى نعرفها ، فنقول : خبز .. خبز .. خبز ، أو لحم .. لحم .. لحم .. !!

إنَّ فهم كلام الناس على هذا النحو السمج سقوط فى التفكير .

فكيف تُسلَّط هذه الأفهام ، على كلام رب الناس ، فتنزل به بدل أن يرتفع بها ؟

ومع ذلك وُجدَ من العوام جمهور غفير ، يرقص بكلمات مبتورة . ويزعم هوسه هذا ذِكراً للّه .

على أننا لا نُعطى أحداً من البَشر - مهما علا شأنه - أدنى حق فى اختلاق صيغ لذكر اللّه ، وإلزام قوم - قليل أو كثير - بها .

بل لا يجوز فى الصيغ الواردة نفسها ، أن تُرسم لها أوقات مخصوصة ، أو أعداد معيَّنة ، ما دام الشارع قد أطلقها من هذه القيود .

وإذا ساغ لأى من الناس أن يضع لنفسه منهاجاً فى القراءة والدعاء والذِكر ، وفق حاجاته الخاصة ، فليس له أن يعتبر ذلك شرعاً عاماً ، وأن يفرض على الناس اتباعه .

إنَّ ذلك لم يحدث فى الشِعر فكيف يحدث فى الدين ؟!

حدث أن ألَّف المعرى ديواناً أسماه « لزوم ما لا يلزم » جعل رويه على عدة أحرف .

والعرب - فى قصائدها الطوال والقصار - لا توجب ذلك .

فكان صنيع المعرى - هذا - موقوفاً عليه ، ولم ير الشعراء مدعاة لاتباعه فيه .

إلا أن العقل العام فى ميدان الشِعر ، تحوَّل إلى حماقة فى ميدان الدين .

---

(١) فاطر : ٣

فوُجِدَ من أرباب الطُرق مَن صنع للصباح والمساء أوراداً حافلة ، وضمها إلى الصلوات الموقوتة ديناً مع الدين .

ولا تقولن الذكر خير ، والاستكثار منه ليس شناعة ، تستحق النكير .

فإن الذكر خير حقاً ، والاستكثار منه - فى حدود ما شرع الله - أمر ندعو إليه ، ولا يُتصور أن يعترض مسلم عليه .

وما شرع الله من ذِكر ، أوسع من أن يكون حديث لسان ، أو ترديد كلام ...

إنَّ الذكر الذى ارتضاه الله ديناً ، وقبله من عباده قُربة ، أعمق أثراً ، وأرفع أجراً من هذه الطقوس التى اصطنعها أرباب الطرق فقطعوا بها الطريق ...

وحكمة الله فى تشريعه ، تجعل العبادات المرسومة على قدر مرسوم ، لا تصلح النفوس بما دونه ولا بما فوقه .

ومن التهور أن تحسب الاستكثار من شىء ما - لأنه دواء - أمراً محموداً !!

ألا ترى أنَّ تناول قرص أو قرصين من « الإسبرين » شفاء من الصداع ؟

فإذا أردتَ الانتحار تناولتَ جملة فاحشة من هذا الدواء ؟؟

لقد رأينا مدمنى « الأوراد والوظائف » ضائعين فى ميدان العلم والتربية ، ورأينا الإسلام قد تأخر بهم فى ميادين الكفايات والإنتاج .

والعلّة فى هذا الارتكاس أن القوم ضلوا عن هَدى رسول الله ﷺ فزاغوا عن الصراط المستقيم .

* * *

● حقيقة العبادة :

لا يمكن بحث « السلوك » مع تجاهل الأسباب التى أدت إليه ، أو العوامل التى تمخضت عنه .

وعلماء الأخلاق فى شرحهم لـ « السلوك » يفيضون فى بحث الوراثة والبيئة ، والمقاصد والغايات ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا ما نعنى به هنا .

إنَّ السلوك - من الناحية النفسية - أثر المظهر الثالث من مظاهر الشعور فى الإنسان الحى ، ومظاهر الشعور كما حددها علم النفس - هى الإدراك ، والوجدان ، والنزوع .

فإذا أردت التعرف على نزعة من النزعات ، والإحاطة بشُعَب العمل الذى يصحبها فيجب أن تعرف مظاهر الشعور التى تسبقها ، حتى تبنى علمك على قواعد سليمة .

والذين ينظرون إلى العبادات المختلفة ، على أنها أعمال ، لا وحدة فيها ، ولا رباط بينها ، أو أنها تكاليف ينهض إليها المرء ، راضياً أو كارها ، أو سلع يشتريها الخادم من السوق ويدفع بها إلى السيد الذى يطالِب بها .

الذين ينظرون إلى العبادات هذه النظرة هم قوم يجهلون الدين جهلاً مطبقاً ....

وكثير من العابدين يباشرون الطاعات المعروفة ، كأنها استعارات من خارج الجو الذى يعيشون فيه ، استعارات مجلوبة على نفوس فارغة من معناها ، كله أو جله .

والحق أنَّ للعبادة التى أمر اللّه بها ، وخلق العالَمين من أجلها ، شأن فوق ذلك .

إنها شعور مكتمل العناصر ، يبدأ بالمعرفة العقلية ، ثم بالانفعال الوجدانى ، ثم بالنزوع السلوكى .

فالصورة الأخيرة ثمرة ما قبلها .

وهذا هو الوضع الصحيح لإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإحسان الخُلُق ، وقول الحق ، وسائر العبادات الأخرى ...

إنَّ العبادة الأولى فى الإسلام ، هى معرفة اللّه معرفة صحيحة ، والعقل المستنير بهذه المعرفة ، هو القائد الواعى لكل سلوك صحيح والأساس المكين لكل معاملة متقبَّلة .

ويوم تتلاشى هذه المعرفة من لُبِّ الإنسان ، فلن يصح له دين ، ولن تقوم له فضيلة .

والمعرفة الصحيحة لله تهوِّن من قيمة الأخطاء التى يتورط فيها المرء ، لأنها أخطاء عارضة ، أو خدوش سطحية .

أما الجهل بالله فهو الخطيئة التى لا تُغتفر ، ولا يصح معها عمل .

ومن ثَمَّ يقول الله فى كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (١) .

ذلك أنَّ الشرك دلالة جهل غليظ بالله عَزَّ وجَلَّ .

وهل أحمق من رجل يسكن عمارة ضخمة ، فإذا هو يتوهم أنَّ سِلال القمامة المبعثرة فيها ، هى التى قامت على بنائها ؟

أليس هذا مثل الوثنية المخرِّفة ، التى ترد مظاهر الوجود الكبرى إلى بعض الجماد ، أو الحيوان ، أو الإنسان ؟

والمعرفة المعتبَرة ، هى التى تُستَمد من ينابيعها الفريدة ، أى من أعمال الله وأقواله ، أى من صنعه فى كونه ، أو من كلمه فى وحيه ، وليست هناك معرفة وراء ذلك ..

لا يمكن أن يُعتبر عارفاً بربه شعب أبله ، يعيش بين الأرض والسماء ، فلا يعى من آيات الخليقة شيئاً ، ولا يكتشف لأسرارها حلاً .

مع أنَّ الله - فيما أوحى به إلى رسله - بيَّن أن الإيمان الحق ، إنما يقوم على التدبر الذكى لهذا العالم ، والتجوال البعيد فى آفاقه الرحبة .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ (٢) .

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

والتفكير الباعث على معرفة الله ، هو سر توقيره ، وأساس تقواه ، ولذلك يقول أولئك المفكرون الفاقهون : ﴿ .... سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

إنَّ أُولى الألباب ، هم الذين فكروا فى خلق الله ، فاستفادوا من هذا التفكير خشيته ، وطلبوا الوقاية من سخطه .

فالتقوى إذن ، ليست وليدة بلادة فى الذهن ، أو قصور فى الفكر ، كلا ، إنها وليدة الإدراك الناضج للحياة وما فيها .

وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

التوسع فى معرفة الله هو العبادة الأولى ، والتعرف على الله فى ملكوته الواسع ، هو استجابة لما أمر به فى كتبه المنزَّلة ، والنتائج التى تتمخض عنها علوم المادة لا يمكن إلا أن تصادق الوحى المقبل من وراء المادة ، لأنَّ هذا وذاك من عند الله .

وما يتوهمه القاصرون من تفاوت أو تناقض بين الدين والعلم ، ليس إلا خرافة صغيرة .

خرافة نشأت عن أخطاء المشتغلين بالعلم وبالدين جميعاً .

وقد قرأتُ للعلماء المتوافرين على الدراسات الكونية ، تصحيحات لبقة لأخطاء زملائهم العاملين معهم فى هذا الميدان ، والذين أساءوا للدين عن عمد ، أو عن تهور .

وأستطيع - فى دائرة المشتغلين بالدراسات الدينية - أن أوضِّح موقف الإسلام من العلم المادى ، فأؤكد أن بحوثه وكشوفه هى المقدمات العتيدة لليقين الحق ، وأنها الأسلوب الوحيد الذى ارتضاه القرآن لمعرفة الله ، وأن إهمال هذا اللون الخطير من المعرفة ، كان أبرز المعاصى التى أساءت إلى الحضارة الإسلامية ، بل إنَّ المسلمين بهذا الإهمال ظلموا أنفسهم ودينهم أفدح الظلم .

---

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) فاطر : ٢٨

لو أنَّ المسلمين الأوائل - بدل أن يشتغلوا بفلسفات الإغريق النظرية - انساقوا مع تيَّار دينهم فى البحث الكونى المجرُد ، لكان ذلك أجدى عليهم وعلى الناس .

روى الصلاح الصفدى ، أنَّ المأمون لما هادن حاكم « قبرص » كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الحاكم خواصه من ذوى الرأى ، واستشارهم فى ذلك ، فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا بطريركاً واحداً قال : جهِّزها إليهم ، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها ...

وصَحَّ ما توقعه البطريرك الداهية ، فإنَّ المسلمين خلطوا هذه العلوم بما ورثوه من كتاب وسُنَّة ، ثم فهموا دينهم على ضوء هذه العلوم الوافدة ، وما تضمنته من آراء كاسدة .

ثم تطورت الحال فأصبحت هذه العلوم ديناً ، وأمسى الرجل يُعتبر من علماء الإسلام ، وهو لا يعرف إلا نزراً يسيراً من الكتاب والسُنَّة ، لأنه ضرب بسهم فى الإحاطة بهذه الترهات والأباطيل ...

إنَّ الرجل لا يُسمى عالماً بالدين ، إلا إذا كان فقيهاً فيما أنزل اللّه ، ولا يُعتبر عالِماً بما أنزل اللّه إلا إذا نفذ إلى قليل أو كثير من معارف الكون .

وعلى قدر معرفته بالحياة والأحياء ، تكون معرفته وخشيته للّه رب العالمين .

* * *

هذه المعرفة ، إن لم تكن الفضيلة بعينها ، فهى هادى السلوك الفاضل وحاديه ، إذ المفروض فيها أنها تصنع الإنسان صناعة خاصة ، وترقى بعمله ، كما ارتقت بفكره إلى أوج رفيع .

مَن عرف الخالق والخليقة وجب عليه أن ينشد الكمال فى كل عمل يؤديه ، وأن يتوقى العثار فى كل لحظة يحياها .

والإسلام يوجب على كل داخل فيه ، أن يُصلح عمله ، وهذا العمل الصالح المرتقَب من المسلم ليس له نطاق يحده .

فالعموم المطلق مقصود فى عشرات الآيات التى تجعل « عمل الصالحات » ضميمة لا بد منها مع الإيمان الصحيح .

ما هو العمل الصالح ؟ إنه الإحسان الذى ذكرته آيات أخرى ، حين رَدَّ على مَن يحسبون الجنة احتكاراً لطوائف معينة :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وكقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً * وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(٢).

والطاعات التى رسم لها الشارع صوراً خاصة ليست إلا جزءاً يسيراً من الإصلاح الشامل الذى كتبه الله فى الأعمال كلها : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

فمَن ظَنَّ الدين قياماً بأعمال معيَّنة ، فى أماكن معيَّنة ، فهو واهم .

إنه لن يتم إيمان إنسان ، إلا إذا تكوَّنت فى نفسه ملكة الإجادة ، فيما يوكل إليه من عمل .

الإجادة الشاملة التى تبلغ بالأمر تمامه ، وتكره فيه القصور ، وتخشى عليه الفساد .

إنَّ كلمتى ﴿ آمَنُواْ ﴾ ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ تصوران أمة شمل حب الخير نواحيها كلها ، لا تعرف الفساد فى شأن من شئونها .

---

(١) البقرة : ١١١ - ١١٢ (٢) النساء : ١٢٣ - ١٢٥ (٣) الأنعام : ٤٨

تدير أحوالها الاقتصادية والاجتماعية على محور من الفطنة والكياسة والذوق السليم ، والعقل الحصيف .

إذ الصالح : أى فعل سانده الفكر والنظام ، وجانبه الطيش والهوى ، نعم .. أى فعل .

فمنذ يفتح المرء عينيه من منامه ، ويستقبل مع النهار تكاليف الحياة ، يعالج أعمالاً لا حصر لها ، تكتنفه من كل ناحية ، ويجب أن يبت فيها ، ويترك طابعه عليها .

وحق الله على المسلم ، أن يُحسن ويُصلح فى هذه النواحى كلها ، زارعاً أو تاجراً ، كاتباً أو حاسباً ، تابعاً أو سيداً ، تلميذاً أو أستاذاً .

إنَّ الجهاز المعَد لعمل - ما - تهيئه طبيعته لأداء هذا العمل فى شتَّى الظروف ، والإيمان الحق يصوغ الإنسان صياغة تجعل الإحسان العام طبيعة قلبه ولبه .

ومن ثَمَّ فوظيفة المسلم الدائمة ، أن يُصلح نفسه ، وأن يُصلح الحياة معه .

وشر ما أُصيب به الدين ، حصره فى طائفة من الأعمال ، يحسب الجُهَّال أنهم إذا أتوا بها ، فقد أدُّوا واجبهم ، ولا عليهم بعد .

هذا الفهم الخاطىء جعل الحياة تشقى بأصناف العابدين ، الذين قد يُصلُّون ، وقد يصومون .

لكن أعمال الحياة تفسد فى أيديهم ، ولذلك لا يؤمنون عليها .

ولو فُرِضَ أنهم أدُّوها تأدية مقبولة ، فقلَّما يُنتظر منهم أن ينافسوا فى إجادتها ، أو يسابقوا الآخرين فى تحسينها ...

ونحن لا نتعرض لصلاة هؤلاء وصيامهم ، فقد تكون عباداتهم صحيحة من ناحية الشكل .

أما الذى لا مِرية فيه ، فهو أن تدينهم مدخول ، وقلوبهم وعقولهم مريضة .

وملكة الإصلاح التى يجب أن تقارن الإيمان فى أنفسهم معطلة . بل لعل معرفتهم لله ، يشوبها غموض وخبط .

إنّ القلب الصالح يحوّل الأعمال المعتادة إلى طاعات رفيعة القَدْر عالية الأجر .

وما أكثر شئون الدنيا ، وما أوسع أطوار الحياة .

لكن هذه وهذه ، يضبطها المؤمن فى نظام مطرد مصقول ، حين يتناولها ، فيجعل منها قُربات خالصة ، كما تتناول المعدة الطعام ، فتحوّله إلى حياة وقوة .

وقد بيّن الله فى كتابه ، أنّ مطاردة العدو واغتنام ما معه ، وإلحاق الأذى به ، تُعتبر « عملاً صالحاً » فقال :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وقد تقول : ذلك لأنه جهاد !! ومع أنّ أعمال المرء كلها فى الميدان العام تُعتبر جهاداً لا يقل عن الأنواع التى ذكرتها الآيات السابقة .

إلا أنّ هذا الاعتراض مردود ، بما رُوِىَ من ثبوت هذه الأجور لأعمال هى للّهو واللّذة أقرب منها إلى الجد ، ما دام مقترفها يبغى بها الخير .

إن انحصار « العمل الصالح » فى عبادات خاصة ، جعل طُلاّب التقوى يشغلون أوقاتهم المتطاولة بتكرير هذه الأعمال المحدودة ، كأنهم لا يرون غيرها وسيلة إلى مرضاة الله .

فهم يستمسكون بهذه الأعمال ، كلما فرغوا منها عادوا إليها ...

---

(١) التوبة : ١٢٠ - ١٢١

يقول الشعرانى عن نفسه : « كنتُ إذا فتحتُ مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أُصلّى الصبح ، وأذكر إلى ضحوة النهار ثم أُصلّى الضُحَى ، وأذكر حتى يدخل وقت الظهر ، فأُصلّى الظهر ، ثم أذكر إلى العصر ، ومن صلاة العصر إلى صلاة المغرب ، ومن صلاة المغرب إلى العشاء ... وهكذا .

فمكثت على ذلك نحو سنة !! وكنت كثيراً ما أُصلّى بربع القرآن ، بين المغرب والعشاء ، ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر ، وربما صلّيتُ بالقرآن كله فى ركعة !!

وكان نومى غلبة ، تخطف رأسى خطفة بعد خطفة ، وخفقة بعد خفقة .

وكثيراً ما يغلب علىّ النوم فأضرب أفخادى بالسوط . وربما نزلتُ بثيابى الماء البارد شتاء ، حتى لا يغلبنى النعاس » ..

هذا النهج من الحياة ليس بإسلامى ، ولسنا ننكره فقط لما فيه من غلو يجافى السُنّة كما يعرف جمهور العلماء .

ولكنا ننكره لما يُشعر به من أنّ الطاعة هى إدمان الذكر والقراءة والصلاة ، على هذا النحو المكرّر الممل .

أتحسب القاضى المنشغل بالفصل فى الخصومات ، حين يسهر على تحضير قضاياه أقل إرضاءً للّه من هذا العاكف على قراءة كتابه ! ؟

أتحسب المدرس المنشغل بحرب الجهل ، حين يسهر على تحضير دروسه أدنى حالاً من هذا الذاكر العانى ؟؟ لا .

بل كلاهما أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الرُشد .

بل إنّ النائم المستغرق فى منامه لطول ما كدح سحابة نهاره مجاهد ، ينام ويصحو بعين اللّه ، ما دام يحيا نظيف القلب حى الضمير ..

إنّ الخطأ فى فهم معنى العبادة ، مالَ بحضارتنا وثقافتنا عن السداد ، وجعلنا نفهم الجهل علماً ، والعلم جهلاً ، وكان لذلك أثره الحاسم فيما أصاب أُمتنا من انهيار ...

وفى الأيام الأخيرة ، رأيتُ بعض الشباب المتدين ، يكاد يسلك هذه الطريق الجائرة .

فهو يحسب مظهر إخلاصه لله - إذا انضم لجماعة من هذه الجماعات الإسلامية - أن يحترف الوعظ والإرشاد ، وأن يدأب على قراءات مطوَّلة فى كتب التفسير والفقه ، وما إليها ، وقد يكون بعد ذلك طبيباً فاشلاً أو مهندساً هزيلاً ...!!

لَيْتَ شِعرى ، ما الذى يصرف هذا الطبيب عن مهنته الجليلة ! ؟

وكيف لا يدرى أنَّ جراحة حسنة يقوم بها ، أو دواء موفقاً يصفه هو من صميم « الصالحات » التى اعتبر الإسلام عملها ركناً فى الفلاح وشرطاً للنجاح ! وأن هذا العمل لا يقل وزنه عن صلاة يُقيمها أو زكاة يُؤديها ...!

ومن مواريثنا الباطلة ، أننا نصف علوم الشريعة بالشرف ، ونكاد نصم علوم الحياة الأخرى بالهوان ، مع أنَّ هذه المعارف كلها ، سواء فى الدلالة على الله وخدمة دينه .

ومن مواريثنا الباطلة ، أننا مصروفون عن الدراسات العلمية المنتجة .

ولا تزال نسبة المسلمين فى الجامعات الفنية الخطيرة - إلى وقت قريب - تشير إلى تخلفنا الشنيع وإلى تقدم غيرنا .

عندما التقى اليهود بالعرب فى معارك « فلسطين » الأولى ، كانت جبهة إسرائيل تضم جيشاً من الأخصائيين فى الهندسة والإحصاء ، والزراعة والكهرباء ، وطبائع الأرض ومواقع المياه ، مكَّنها من أن تعرف كل شىء ، عن كل شِبر من الأرض .

وقد اشتغل هذا الجيش الصامت فى خدمة العصابات التى قاتلت دول الجامعة العربية السبعة .

فإذا الجامعة تُكتسح ، وإذا قواها تذوب .

ولم تُغن عنها الخُطب الرنّانة ، والحماسة التى تنقصها الخبرة والصدق .

ذلك أنّ ثروتنا – من الرجال والأعمال – كانت أقل كثيراً من ثروة عدونا ...

إنّ التمكن من الدنيا أمر لا بد منه فى التمكين للدين ، ولا مكان فى الدنيا لجاهل بمعارفها ...

قال الأستاذ « طه عبد الباقى » مدافعاً عن التصوف الصحيح وعن « الشعرانى » : دعا الشعرانى إلى الجمع بين العبادة والعمل ، باعتبارهما دعامة الحياة ، وساق الأدلة على حرص الصالحين من أهل التصوف على تجنب العيش من صدقات المحسنين .

وقد فضّل الشعرانى الصُنّاع على العُبّاد ، لأن هؤلاء يساهمون فى نفع الناس ، بينما يقتصر نفع العبادة على صاحبها .

وكان يقول : ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته سبحته ، وأن يجعل النجار منشاره سبحته ، ذلك هو التسبيح النافع المقبول ! ! ..

بل لقد آثر الشعرانى فى دعوته حياة البدن على حياة الروح ، لأن هذه قد تفرعت عن حياة الجسم ، وهى تتأثر بما يعتريه من ضروب العُسر واليُسر ، حتى ليفضى الضنك إلى تشتت الفكر وبلبلة الخاطر .

ولذلك كان أبو حنيفة يقول : « لا تستشر مَن ليس فى بيته دقيق » .

وهذا كلام نفيس مقبول ، وإذا فُهِمَ التصوف على هذا النحو فهو إسلام ، وإلا فهو هراء ! ! ..

ليست التقوى أن تترك الدنيا ، إنما التقوى أن تملكها ، فإذا ملكتها وأنت عبد الله ، فأنت وما فى يديك له .

إنّ الهاربين من الحياة ليسوا رجالاً ، وليسوا بمؤمنين .

ومن السخف أن يزعم قوم أنَّ التجرد لله يكون بالعكوف على بعض العبادات ، وهجران البعض الآخر .

فعبادة الله فى الأسواق والميادين ، ليست دون عبادته فى المساجد والمحاريب ...

نعم .. قد تكون الدنيا خطراً على إيمان القاصرين والمفتونين ، كما يكون الطعام خطراً على طائفة من المرضى .

فهل يعنى هذا أن يُحرم البَشر قاطبة من الطعام ، وأن تُقرض القصائد فى هجوه ؟

ألا ما أحسن قول « إقبال » : « الكافر يفنى فى الدنيا ، والدنيا تفنى فى المؤمن » ! !

ثم إنَّ الدنيا خطر على أصحاب القلوب الصغيرة ، لكن خطرها لا يزيد على خطر الصلاة والصيام ، عندما يغرسان الغرور والكبرياء فى النفس ، أو عندما يعجزان عن غسل أوضارها ، وكبح جماحها ..

إننا - عندئذ - لا نحارب هذه العبادات ، بل نحارب عدم الانتفاع بها .

كذلك يجب أن يكون موقفنا مع مَن تستهويهم شهوات الحياة ، فيبيعون أنفسهم للشيطان ، بدل أن يستغلوا الدنيا فى عبادة الرحمن ..

الإحسان المطلق لكل ما تضع فيه يدك ، إصلاح الحياة ووصلها ببارئها الأعلى ..

هذا هو معنى العبادة التى تطرد مع الشمول التام فى قوله تعالى : ﴿ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ [1] أكثرمن سبعين مرة .

أما الطاعات التى فرضها الشارع ، وبيَّن أعدادها ، وهيئاتها ، وبداياتها ، ونهاياتها ، فينبغى أن نتقبلها كما وردت ، لا نتدخل فيها بتحوير ، أو زيادة أو نقص .

---

(١) البقرة : ٢٥ وسور أخرى .

وهى لو أُديِّت على النحو الذى قصده الشارع لكفلت للأفراد والجماعات خيراً كثيراً ...

بَيْدَ أنَّ العبث بها - شكلاً وموضوعاً - فوَّت أغلب منافعها ، وأتاح للفاسدين والملحدين فرصاً شتَّى للنيل منها ...

* * *

أما الناحية الوجدانية فى العبادة ، فقد عرضنا لبحثها فى كتابنا « فقه السيرة » وشرحنا كيف أنَّ العبادة خضوع مُشرَب بالمحبة والإعجاب ، لا خضوع قسر وكراهية .

وناحية الوجدان فى العبادة ظفرت من المتصوفة القدامى بعناية رائعة .

فقد لوَّنوا الأفئدة بعواطف حارة ، فى علاقاتها باللّه ، وأمدوها بفيض من الأشواق النبيلة ، جعل أداء الطاعات المفروضة كسماع الموسيقى المشتهاة .

ولا عجب ، فأكثر أولئك المتصوفين أصحاب نفوس شاعرة ، تغلبها الرقة ، ويسودها الخيال .

وقد استطاع رجالهم الأوائل أن يقودوا الجماهير ، وأن يفرضوا تعاليمهم على أكثر بلاد الإسلام .

وتعاليم التصوف خلط من حقائق الدين ، وموضوعات الفلسفة ، وشروح طويلة لقواعد الأخلاق ، وأمراض النفوس ، وروابط الجماعة .

وأول ما يُؤخذ عليهم ، أنَّ العاطفة غلبت العقل فى ثقافتهم ، وأنهم حكَّموا المشاعر الى أنسوا بها ، على شعائر الإسلام ومعارفه التى لم يعوها .

وزادهم تشبثاً بما لديهم من حق وباطل ، أنَّ الفقهاء المشتغلين بالشريعة وعلومها - وهم لم يكونوا أهل رسوخ فى الدين ، ولا قبول بين العامة - كان اهتمامهم متجهاً إلى حروف الدين وصوره الظاهرة .

فإذا تحدّثوا فى علم التوحيد أو علم الأخلاق ، صاغوا الدلائل ، ورسموا القواعد وفق ما يقضى به منطق « أرسطو » ثم خاضوا بحاراً من الجدل التافه ، لا ساحل لها ..

والرجل إذا ذهب إلى المسجد ، فسمع فى حلقات العلم الشرعى هذا الكلام ، لم يعره أذنه ، على حين يعطى أذنه وقلبه لشيخ يذكر الله ويبكى ، ولو كان ذكره وبكاؤه على دق الطبول وصفير الناى ..

لذلك كسدت سوق الفقهاء ، وأدبرت معها علوم الفقه الأصيل ، بعد الدخيل والهزيل ! وانتشرت طُرق التصوف ، ونمت معها الأفكار المجذوبة ، والمشاعر المخبولة ، والعواطف التى لا تبالى فى حكمها على الأشياء بشرع أو عقل .

والحالات التى تملأ العالم الإسلامى اليوم ، هى بقية الأجيال التى نشأت فى غيبة الفقه الإسلامى والروح الإسلامى ، أى فى غيبة الإدراك السليم ، والذوق السليم .

والبلية العظمى جاءت من قصور الفقهاء فى ميدان التربية والعبادة ، ومن قصور المتصوفة فى ميدان العلم والتشريع .

والإسلام لا يقوم إلا على راسخين فى هذه النواحى جميعاً .

ومن ثَمَّ فشت بيننا مصطلحات ومستحدثات ، أضرت بديننا وأمتنا ، إضرارا بالغاً .

قال « آدم متز » فى كتابه « الحضارة الإسلامية » :

« الحركة الصوفية أوجبت فى الإسلام ثلاثة مبادىء ، أثّرت فيه تأثيراً كبيراً، وهى الثقة الوطيدة الكاملة بالله ، والاعتقاد بالأولياء ، واجلال النبى محمد (ﷺ) ::

ولا تزال هذه المباديء الثلاثة أهم العومل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية

ولعل هذا التفوق الذى ظفرت به المبادئ الصوفية ، هو سر خصومة العلماء للقوم » !

وهذا كلام غريب ، فإنَّ الثقة بالله وإجلال رسوله ، ليست بدعاً صوفية ، فما الإسلام إذن ؟؟

أما الذى استحدثة الصوفية حقاً ، ورجموا به هذه الأمة ودينها ، فهو الاعتقاد بالأولياء .

والكذب الأوروبى يجعل هذه الخرافة وسطاً بين مبدأين سليمين ، ليعطيها فضل قوة ، وهكذا يلتبس الحق بالباطل ، ويُشاب التوحيد بالشرك .

وربما قصد الكاتب بالثقة الموطدة فى الله ، هذا التوكل الباطل ، المُقعِد عن العمل والتكسب .

فإن كان هذا ما يعنيه ، فهو ابتداع حقيقى من جُهَّال الصوفية ، لم تعرفه القرون الأوّل .

ويظهر أنَّ ذلك هو المراد .

فإنَّ « ابن خلدون » يقول عن طريق الصوفية :« أصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه .

وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسَلَف .

ولما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطتها ، اختص المقبلون على الله باسم الصوفية » .

وكلام « ابن خلدون » هذا مشوش مضطرب ، وقد علمتَ موقف الإسلام من الدنيا والزهد فيها ، والرهبانية والأخذ بها ، والمال والتصرف فيه ...

يجب أن يعلم المسلمون أنَّ حاجة الدين للدنيا كحاجة الروح للبدن ، وأنَّ أى تعليم يخل بقوى الأمة المادية ، ويُمكِّن غيرها من التفوق عليها ، فهو خيانة لله ولرسوله .

وإذا لم يكن خيانة قلبية فهو خيانة فكرية .

إنَّ القرآن الكريم سوَّى بين الجهاد الاقتصادى ، والجهاد العسكرى ، ورخَّص

للمجاهدين في الميدانين معاً أن يقرأوا من آياته ما تيسر لهم ، ففى عناء العمل غنية عن طول التلاوة .

وقد كان سعد بن أبى وقاص -لاشتغاله بقتال العدو - يوتر بركعة واحدة .

﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (١) .

إنَّ أنواعَ العلم والعمل - ما دامت متمحضة للحق - فهى قُربة لا تقل عن الصلاة والقراءة .

ولستُ أدرى كيف تنجح رسالة يتخلف حملتها عن سائر الأمم فى شئون الحياة ، أو يشيع فيها أن حمل المسبحة عبادة لله ، وحمل الفأس والمطرقة عمل شخصى بحت ؟

ما كان أصحاب رسول الله ﷺ فى مكة ، أو فى المدينة ، أقل فقهاً فى حقوق الحياة وشئون الدنيا من مشركى مكة ، ولا كفار المدينة .

بل لعل احتيالهم فى حفر الخندق ، دلّ على مرونة وتجديد ، سبقوا بهما ...

وما كان العرب - حين أسلموا - أقل فحوله ولا وسائل غلب من خصومهم .

كانوا سواء فى أمور كثيرة ، ثم امتاز العرب بالدين الجديد ، وروحه الجرئ الوثّاب الغامر ...

لكن مسلمى اليوم ، إذا قيسوا بأهل الأرض فى آفاق العلم والصناعة والحضارة ، بل فى الزراعة ورعى الغنم والبقر ، وجدتَ تخلفاً شائناً ، علّتهم فيه الجهل بالدين ، والتعلق بالبدع السمجة ، والحيرة فى طرق مضللة أبعدت ذويها - من قديم - عن الصراط المستقيم .

ذلك ، وقد عرضت للطاعات المقررة بدع شتّى ننبّه إلى بعضها ..

---

(١) المزمل : ٢٠

● زخرفة المساجد :

ليس لعبادة الله مكان خاص .

ففى الأحاديث : « إتَقِّ اللّه حيثما كنتَ » ، « جُعِلَتْ لىَ الأرض مسجداً وطهوراً » .

ويقول الله سبحانه : ﴿ يَا عِبَادِيَ الذِّينَ آمَنُواْ إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَإيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

ومن هَدى الرسول ﷺ أن تُصلَّى النوافل فى البيوت ، لتكون هذه الصلوات حياة لها ، ونوراً فيها .

وهذا التيسير على الناس فى عبادة الله ، لا يمنع من تخصيص أماكن لذِكر الله والإقبال عليه ، يقصدها المرء فى أوقات متقاربة ، ليهدأ فى ساحتها من ضجيج الحياة ، وليلمح فيها إخوانه ، وهم مقبلون على الله بنيّات خالصة ، يرجون رحمته ويخافون عذابه !

وليس أعون على الحق من رؤية الآخرين ، يهرعون إليه ويشاركون فيه .

إنَّ وساوس الضعف فى نفس الفرد تنزاح أمام إقبال الجماعة ونشاطها ...

لذلك كان غشيان المسجد من أمارات التقوى ، وإلفها من دلائل حب الله ، وكان السعى إليها تكفيراً للسيئات ، ومضاعفة للحسنات ، ورفعة فى الدرجات.

فليست المساجد - إذن - متحفاً لفنون الزينة ولا معرضاً لبدائع الهندسة ، ولا مكان فى بنائها للتكلف والإسراف والمباهاة .

رَوِى أنَ عمر أمر ببناء مسجد ، فقال للبنَّاء : « أَكِنَ الناس من المطر ، وإياكَ أن تُحمِّر أو تُصفِّر » .

وكذلك كانت سُنَّة الرسول الكريم فى بناء مسجده ، جعله - بناءً وفراشاً - آية فى البساطة !

---

(١) العنكبوت : ٥٦

ولا بأس من توسيع المساجد ، حتى تستقبل الألوف ، ومن تضخيمها حتى تضاهى القلاع .

فإنَّ هذا شئ غير الإسراف فى التزاويق والتهاويل التى تستهوى الأنظار .

ويبدو أنَّ ولع البعض بزخرفة المساجد والتألق فى تشييدها ، جاء منافسة للنصرانية التى يتجه رجالها إلى الغلو فى إقامة الكنائس ، وبذل الكثير فى نقشها وتلوينها ! !

ونحن نرى التمشى مع روح الإسلام أجدى ، فإن تقوى اللّه وراء هذا الكلف كله ...

* * *

● المساجد على القبور :

فشا فى بلاد كثيرة بناء المساجد على قبور الموتى ، إعزازاً لذكراهم ، وتقرباً إلى اللّه - كما يقال - بمحبتهم ومجاورتهم .

مع أن النصوص قاطعة بمنع هذا العمل ولعن مرتكبيه .

وكان أولى بهؤلاء البانين أن يدعوا الموتى إلى ما قدَّموا ، وأن يقفوا عند حدود اللّه ، فلا يعصون وصاياه ..

وهذه البدعة تسربت إلى المسلمين عن النصرانية بعد تحريفها .

فقد صح عن عائشة أنَّ أم سَلَمة ذكرت لرسول اللّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ، يقال لها « مارية » ، وذكرت ما رأته فيها ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرارالخلق عند اللّه » .

وهذه البدعة دخلت النصرانية من الوثنية الأولى .

فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السَلَف أن وُداً وسواعاً وأخواتهما ، كانوا قوماً صالحين من أمة نوح عليه السلام . فلما ماتوا عكفوا

على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، فكان هذا مبدأ عبادة الأصنام ...

وإغلاقاً لأبواب الفتنة وسداً لذرائع الفساد ، شدّد النبي عليه الصلاة والسلام على المسلمين فى حظر هذا المسلك ، وعزم عليهم أن ينفضوا أيديهم من الموتى، وأن يستقبلوا الحياة بجهدهم وعزمهم ، دون تعويل على صالح مات أو بقى .

فالإنسان لا يُجدى عليه -أمام ربه - إلا عمله .

وفى هذا الإرشاد المبين يقول صلى الله عليه وسلم : « لا تصلوا إلى القبور ، ولا تجلسوا عليها » ، ويقول : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام »، ويقول « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن هذا » !!

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لعن الله زوّارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسُرُج ».

ونهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور والبناء عليها .

وكان يوصى جيوشه - وهو يطارد الوثنية في جزيرة العرب -ألا تدع صنماً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّته .

وعن المعرور بن سويد قال : صليتُ مع عمر بن الخطاب - فى طريق مكة - صلاة الصبح ، فقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ (١) و ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ (٢) .

ثم رأى الناس يذهبون مذاهب - بعد انصرافهم من الصلاة - فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين - مسجد ، صلّى فيه رسول الله ﷺ ، فهم يصلون فيه !! فقال : إنما هلك مَن كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار

---

(١) الفيل : ١ (٢) قريش : ١

أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعاً .. !! فمن أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصل . ومَن لا ، فليمض ولا يتعمدها ...

وقد دعا رسول اللّه ﷺ ربه ألا يكون قبره بعده عيداً (أى موسماً) تتلقى إليه الوفود .

والخبراء بحقائق الأديان وطبائع النفوس يعرفون وجه الحكمة فيما أمر به اللّه ورسوله ، من تحريم اتخاذ القبور مساجد .

إنَّ رجاء البركة أول ما يذكره الخارجون على هذه النصوص ، أو المحرِّفون لها . لكن هذه البركة المزعومة سرعان ما تتحوَّل إلى تقديس للهالكين واتجاه إليهم بالأدعية والنذور ، واستصراخ بهم فى الأزمات والنوائب .

فإذا لم يكن الأمر شِركاً محضاً ، فهو مزلقه إليه ، مهما كابر المعاندون .

وقد رأيتُ عشرات من الظلامات المكتوبة ، تُرمَى فى ضريح الإمام الشافعى ، أو ترسل إليه بالبريد !!

وسمعتُ المئات من سفهاء العامة . يلهثون بالنجوى الحارة حول قبر الإمام الحسين وغيره !!

ولم أرَ أسفه من هؤلاء وأولئك إلا الذين يعتذرون عنهم ، من صعاليك المتصوفة وأدعياء المعرفة .

على أنَّ علاج هذه المناكر المبتدعة ، لا سبيل إليه إلا بإشاعة العلم والخُلُق ، وتهذيب العقول والطِباع .

فإنَّ النبى - صلوات اللّه وسلامه عليه - لم يهدم الأصنام إلا بعد أن مكث عشرين عاماً ، يكوِّن الأُمة التي تؤمن باللّه ، وتكفر بالطواغيت .

* * *

● فتوى رسمية :

وجهّت بعض الهيئات الإسلامية فى الهند ، إلى فضيلة الأستاذ الشيخ «أحمد حسن الباقورى » وزير الأوقاف ، سؤالاً ، قالت فيه :

هل من الجائز شرعاً تزيين القبور ، وإقامة أضرحة عليها ؟

وهل يجوز شرعاً إقامة مرافق بجوارها مثل السبيل ، والمساجد ، والاستراحة ؟

وما الحكم فى وضع بعض الأصص (الزهرى) على القبور ، أو إضاءتها فى ليالي المواسم الدينية ؟

وقد استهل فضيلة الأستاذ الباقورى إجابته على ما يتعلق بتزيين القبور ، وإقامة أضرحه عليها ، بأنّ هذا العمل ضرب من الوثنية وعبادة الأشخاص ، وقد منعه الإسلام ، ونهى عنه النبىﷺ ، وحَثَّ على تركه .

فقد رُوىَ عن جابر رضى اللّه عنه ، أنه قال : نهى رسول اللّه ﷺ « أن يُجَصَّص القبر ،. وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه ».

وقال علىّ رضى اللّه عنه لأحد أصحاب النبى - وهو يوصيه - : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول اللّه ﷺ ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً إلا سويته » .

وإذا كان المسلمون - اليوم - يتخذون من تزيين القبور مجالاً للتفاخر والتظاهر ، ويمضى بعضهم فى هذا الشطط ، حتى يقيم الضريح على القبر ، إظهاراً للميت بأنه من أولياء اللّه ، أو بأنه من سلالة فلان أو فلان ، واستغلالاً لهذه الرابطة على حساب الدين ، فإنّ ذلك حرام فى حرام .

أما إقامة مرافق بجوار القبور ، كالسبيل والمسجد والاستراحة ، فإن الإسلام يكره مزاحمة القبر والتضييق عليه .

هذا إن كانت تلك المرافق على أرض خاصة بالمنشىء .

أما إن كانت على أرض عامة للدفن ، فيحرم شرعاً شغلها بأى بناء آخر سوى القبور .

وفى الأرض متسع لتلك المرافق ، فيما يجاور أو يقرب منها .

وأما وضع الأصص والرياحين عند القبور أو حولها ، فلا مانع منه .

ولكن الأشجار حكمها حكم المرافق ، تُكره فى المدافن الخاصة ، وتحرم فى المدافن العامة ، لمزاحمتها للقبور ، ولا يجوز التضييق على الموتى ، راحة للأحياء وتنعيماً لهم .

بقى موضوع إضاءة القبور ، إشادة بها وبأصحابها .

وهذا ليس من الدين فى شىء ، لأنَّ الذى يضىء القبر هو عمل الميت وما ادخر من صالح وطيب ، لا تلك القناديل ، أو الشموع ، أو الثريات التى أقامها الأحياء من ورثة الأغنياء .

● نظرة الإسلام :

واستطرد الأستاذ الباقورى يكشف عن نظرة الإسلام إلى ذلك . فقال :

إنَّ الإسلام دين المساواة بين الأحياء ، فكيف يُفرّق بين الموتى فى أشكال القبور ومظاهرها .. ! ؟

ثم إنَّ الإسلام يقرر أنَّ القبر وقف على الميت ، وأنَّ على الذين يدفنون الميت أن يضعوا على القبر ما يشير إليه ، لكيلا يقع من الحى اعتداء على مكان أخيه الميت ، فيتركه له ، بعد ما ترك هذه الدنيا جميعها ، واستقر فى حفرة صغيرة .

فإذا جاء الأغنياء ، فأقاموا لموتاهم الأضرحة والقباب ، وأضاءوها ، وحفوها بالحدائق أو بالأشجار ، فإنَّ الإسلام لن يقيم لهم وزناً .

بل سيحاسبهم على ما أسرفوا وأضاعوا من أموال ، وعلى ما اجترأوا على الله ، من مظاهر القربى الكاذبة الخداعة .

وقد كان من ترسل الأغنياء فى إقامة الأضرحة والقباب ، أن انصرفوا عن الجوهر إلى المظهر .

فشمخت القباب والأضرحة فى أنحاء العالم الإسلامى ، وتسابقت المآذن ذاهبة فى الجو ، وأقيمت الموالد تكريماً للمقبورين .

كل هذا اكتفاء بأنه يؤدى عند الله ما قصرت عنه أنفسهم من صلاة أو صوم أو حج أو زكاة .

ونتج عن ذلك أن عظم المسلمون أصحاب الأضرحة الكبيرة ، والقباب العالية ، واستهانوا بغيرهم من ذوى القبور المعتادة .

ونحن نرى فى مصر دليلا على هذا ، فى أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين دفنوا فيها مثل عمرو بن العاص وعقبة بن نافع . ممن لا يوليهم المسلمون عناية مثل غيرهم من أصحاب الأضرحة والقباب العالية .. !!

مع أنهم دونهم فى المكانة والقربى من الله بنص حديث رسول الله ﷺ وإجماع أهل العلم والفقه من المسلمين .

هذا فى مصر ، وله أشباه فى البلاد الأخرى ، وقد عرف المستعمرون والمحتلون هذه النقطة من الضعف ، فعنوا - أول ما عنوا - بإقامة الأضرحة والقباب فى ربوع البلاد ، فانصاع الناس لهم ، وأطاعوا راضين .. !!

ونحن جميعاً نعلم حيلة « نابليون » وخديعته للشعب المصرى ، ببيانه المشهور عقب احتلاله القاهرة ، حين سلك السبيل إلينا ، بتظاهره بالإسلام وإحترامه إياه ، حين ترسم خطاه الجنرال « مينو » الذى أعلن أن اسمه « عبد الله مينو » .

كذلك نحن لا ننسى خداع « لورانس » الذى نفذ إلى صميم العروبة ، بإستغلاله المظهر الإسلامى ، واستيلائه به على أكثر الجزيرة العربية .

وبهذه المناسبة ، أذكر أن أحد كبار الشرقيين ، حدّثنى عن بعض أساليب الاستعمار فى آسيا ، من أن الضرورة كانت تقضى بتحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد عبر تلك المنطقة الواسعة إلى اتجاه جديد ، للمستعمر فيه غاية ، ولم تجد أية وسيلة من وسائل الدعاية فى جعل القوافل تختاره .

وأخيراً اهتدوا إلى إقامة عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة فى هذا الطريق .

وما هو إلا أن اهتزت الأشاعات بمن فيها من الأولياء ، وبما شوهد من كراماتهم ، حتى صارت تلك الطريق مأهولة مقصودة عامرة .

وأحب أن أرسلها كلمة خالصة لوجه الله ، إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يقلعوا عن تضخيم المقابر ، فإنها نعرة للفرد ، ودعوة إلى الأنانية ، وإلى الأرستقراطية الممقوتة ، التى قتلت روح الشرق .

وأن يعودوا إلى رحاب الدين ، التى تسوّى بين الناس جميعاً ، أحياء أو أمواتاً .

لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى ، وما قدمت يداه من أعمال خالصة لوجه الله .

* * *

● وظائف المسجد :

صلاة الجماعة قُربة ، يسعى المسلم إليها ، وينشد ثواب الآخرة وحده عليها .

سواء فى ذلك صلّى هو بالناس ، أم صلّى به أحد الناس .

فإمامة المسجد ليست وظيفة ، يربط لها أجر ما ، قَلَّ أو كثر .

إلا أنه لوحظ أنَّ مصالح الأمة الدينية والدنيوية تقضى أن يخلص لها نفر معينون ، يقومون عليها ، ويتفرغون لها .

فالحكم ، والتعليم ، ، والإدارة ، والقضاء ، وضروب من العبادات العامة ، يجب أن يتخصص لها أُناس ذوو كفاية ودُربة .

وأن تكفل لهم الدولة أرزاقاً تُغنيهم عن الكسب من مهن أخرى ...

وتلك هى طبيعة الأشياء كما أقرّتها المجتمعات القائمة بالنظام الدينى ، أو القائمة بغيره ، من شتّى النُظم .

وقد رئى أنَّ مكانة المسجد فى الإسلام لها خطر كبير ، وأنَّ ترك الإشراف عليها للصدف العارضة لا يليق .

كيف ؟ والمسجد ساحة يلتقى المسلمون فيها ليلاً ونهاراً ، رجالاً ونساءً ، شيباً وشباناً ، يستمعون لآى القرآن فى الصلوات المكتوبة ، وللعظات الموجهة فى خطب الجُمَع والأعياد ، ولدروس التربية التى لا بد منها ، لربط المسلمين بدينهم ، وتنشئتهم على آدابه وتعاليمه .

إنه - لضمان نتائج حسنة من هذه الأعمال - لا بد من انتخاب رجال يُحسنون القيام عليها .

فالمدارس والمساجد سواء فى هذه الحاجة ..

والمجتمع الإسلامى فقير أشد الفقر إلى هذا اللون من الرجال .

وقد تولى قيادته الروحية فى عصور كثيرة شيوخ الطُرق الصوفية ، فأحسن منهم مَن أحسن ، وأساء مَن أساء .

ولو أنَّ أئمة المساجد انبثوا فى نواحيه ، واستحوذوا على ناشئته وشبابه ، يوجهونهم إلى الخير ، ويحبِّبون لهم اللّه ، لأدُّوا رسالة المساجد على خير وجه .

نعم .. إنَّ الإسلام لا يعرف طبقة الكُهَّان ، ليس فى أمته الكبيرة مَن يُوقَف عليهم لقب رجال الدين .

بَيْدَ أنَّ فى الإسلام من يُسمون أهل الذكر ، ومَن يُلقبون بأولى الأمر .

ولهؤلاء وأولئك حق الصدارة والتوجيه .

وواجب على العامة أن يهرعوا اليهم فيما ينوبهم من عُقَد ومسائل .

قال اللّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٨٣

فلا يسوغ للجماهير الغافلة ، أن تتبع مشاعرها الساذجة ، أو تقف عند معارفها الضيقة ، فيما يعرو المجتمع العام من حرب وسلام ، وقلق وأمان ، بل ينبغى أن ترتقب توجيه القادة من ذوى الفكر الحصيف والبصر النافذ .

و هكذا رسم الإسلام طريق الصواب للقاصرين : فشفاء العى السؤال : ﴿ فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومن هنا يجب أن يحوز أئمة المساجد أنصبة ضخمة ، من فقه الدنيا والدين ، وأن تكون لهم دراسات شاملة لعلل الجماعة وأدويتها ، وإلمام واسع بمذاهب السياسة والاقتصاد ، وآراء المربين وعلماء النفس من مسلمين وأجانب ...

ويؤسفنا أنَّ هذا المرموق من أهل القرآن لا وجود له - إلا على ندرة - وأن الجامع الأزهر ووزارة الأوقاف لا ينهضان بهذا العمل الكريم .

وتوجد صور باهتة لوظيفة الإمامة فى مئات المساجد ، تشبه - مع التجوز - الأطلال المتخلفة عن الدور والقصور ، لا تسمع فيها حديث الحياة ، وإنما تسمع فيها نعيب البوم .

* * *

والأذان للصلوات الخمس ، وتطهير المساجد - خاصة بعد ما ألحقت بها مرافق للوضوء - أصبحا من الوظائف ذات الأجور المحدودة ، وقد رُصِدت أوقاف كبيرة للإنفاق على هذه الوجوه المحدثة .

والأذان عبادة محضة ، لا يبذل لها راتب .

وكذلك تهيئة المساجد لاستقبال المصلين وإبقاؤها نظيفة مستحبة .

ولعل الاعتبارات التى جعلت الإمامة وظيفة ، نضحت على غيرها من وظائف المسجد .

---

(١) النحل : ٤٣

ذلك إلى جانب أنَّ أغلب المشتغلين بهذه الأعمال فقراء ، يستحقون العون المجرد .

والحق أن المسجد مرفق عام ، يمكن أن تتوسع الدولة فى استغلاله على نطاق واسع ، لرفع مستوى الجماهير ، مادياً وأدبياً .

ويمكن أن تنوط به مهام اجتماعية منوَّعة .

ولولا أنَّ الاصلاحات الحديثة تكره أن يكون عليها طابع الدين ، لكان المسجد دعامة كل نهضة تدفع بالبلاد إلى الأمام ، ولكانت وظائفه من السمو بحيث لا يُنتقى لها إلا أصحاب السبق والكرامة والامتياز .

* * *

● الوعظ الدينى :

العظة القصيرة من سنن الإسلام ، وقلَّما أطنب رسول الله ﷺ فى مقال ، أو استرسل فى نُصح .

والمحفوظ من خُطبه فى الجُمَع والمناسبات ، وأحاديثه للأفراد والجماعات ، لا يزيد أطوله على دقائق معدودة .

أما سائره فكلمات حكيمة موجزة ، يمكن عدها على الأصابع ...

فتطويل الخُطب على النحو الذى ألفه أئمة المساجد ووعَّاظها مخالف لهدى الإسلام

وقد درج كثير من الدُعاة على أن يخطبوا الناس ساعة أو ساعتين ، بل قد يخطب بعضهم ثلاث ساعات ! ! .

وثلاث ساعات مدة يقرأ فيها المرء ُربع القرآن الذى أنزله الله مجزأً على ثلاث وعشرين سنة ... ! !

وقد استمعتُ إلى نفر من أولئك المطيلين ، فوجدتُ عماد كلامهم اللغو والمعانى المستبعدَة ، والتكرار ، والغلو ، وفقدان الموضوع المحدد .

والمؤسف أنَّ العوام أصبحوا كالمدمنين المتعودين .

والكلام الكثير لا يؤثرُّ فيهم لطول ما قرع آذانهم .

وتلك نتيجة محتومة لفوضى الخطابة والتوجيه التى تملأ ميدان الوعظ والإرشاد عندنا .

* * *

والخطباء الفاقهون قِلّة فى مساجدنا .

أكثرهم لا يدرى ماذا ، ولا كيف يقول .

والأزهر يحمل الوِزر الأكبر فى الأزمة الطاحنة التى نلمسها بين الدعاة والموجهين .

لقد أُنشئ فى كلية أصول الدين قسم خاص بالدعوة والإرشاد ، لم يلبث قليلاً حتى مات .

وأُسست إدارة للوعّاظ ، لم تزل - منذ أُنشئت إلى اليوم - تحيا على هامش النشاطَ الأزهرى .

وينظر إلى رجالها على أنهم أصحاب عمل تافه ! ! .

وبديهى أن تعتمد « الدعاية الإسلامية » على الارتجال ، والحماسة المنقطعة ، وعلى أوقات الفراغ عند لفيف المتطوعين ، وعلى الروح الميت عند المحترفين المهملين .

ومستقبل هذه الدعاية مقلق ، كذلك مستقبل الإسلام معها ، ما بقى قادة الأزهر من الصنف الذى عرفناه طوال السنين السابقة .

وهم صنف يصلح لأى عمل إلا خدمة الإسلام والتصدى لقضاياه الكبرى ..

والغريب أنّ فى علماء الأزهر رجالاً كثيرين ، لهم مواهب رفيعة وطاقات واسعة ، ولكنهم رسبوا فى قاعه ..

وشاءت الحظوظ السيئة أن تدفعهم إلى الوراء ، ليتولى أمورهم وأمور الأزهر والمسلمين معهم قوم عاطلون من الخصائص الممتازة .

* * *